كَتَبْتُ سَطْراً ، وَلا خَطَطْتُ حَرْفاً ، لأَنِّيْ أَعْتَقِدُ أَنَّ عَهْداً مِثْلَ عَهْدِكَ الْغَادِرِ ، وَوُدّاً مِثْلَ وُدِّكَ الْكَاذِبِ ، لا يَسْتَحِقُّ أَنْ أَحْفِلَ بِهِ ، فَأَذْكُرَهُ ، أَوْ آسَفَ عَلَيْهِ ، فَأَطْلُبَ تَجْدِيْدَهُ .

إِنَّكَ عَرَفْتَ حِيْنَ تَرَكْتَنِيْ أَنَّ بَيْنَ جَنْبَيَّ نَاراً تَضْطَرِمُ ، وَجَنِيْناً يَضْطَرِبُ ، تِلْكَ لِلأَسَفِ عَلَى الْمَاضِيْ ، وَذَاكَ لِلْخَوْفِ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ ، فَلَمْ تُبَالِ بِذَلِكَ ، وَفَرَرْتَ مِنِّيْ حَتَّى لا تُحَمِّلَ نَفْسَكَ مَؤُوْنَةَ النَّظَرِ إِلَى شَقَاءٍ أَنْتَ صَاحِبُهُ ، وَلا تُكَلِّفَ يَدَكَ مَسْحَ دُمُوْعٍ أَنْتَ مُرْسِلُهَا ، فَهَلْ أَسْتَطِيْعُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ أَتَصَوَّرَ أَنَّكَ رَجُلٌ شَرِيْفٌ ؟ لا ، بَلْ لا أَسْتَطِيْعُ أَنْ أَتَصَوَّرَ أَنَّكَ إِنْسَانٌ ؛ لأَنَّكَ مَا تَرَكْتَ خُلَّةً مِنَ الْخِلالِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِيْ نُفُوْسِ العَجْمَاوَاتِ وَأَوَابِدِ الْوَحْشِ إِلا جَمَعْتَهَا فِيْ نَفْسِكَ ، وَكُلُّ مَا فِيْ الأَمْرِ أَنَّكَ رَأَيْتَنِيْ السَّبِيْلَ إِلَى إِرْضَائِهَا ، فَمَرَرْتَ بِيْ فِيْ طَرِيْقِكَ إِلَيْهَا ، وَلَوْلا ذَلِكَ ، مَا طَرَقْتَ لِيْ بَاباً ، وَلا رَأَيْتَ لِيْ وَجْهاً .

خُنْتَنِيْ إِذْ عَاهَدْتَنِيْ عَلَى الزَّوَاجِ ، فَأَخْلَفْتَ وَعْدَكَ ذَهَاباً بِنَفْسِكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مُجْرِمَةً سَاقِطَةً ، وَمَا هَذِهِ الْجَرِيْمَةُ ، وَلا تِلْكَ السَّقْطَةُ إِلا صَنْعَةُ يَدِكَ وَجَرِيْرَةُ نَفْسِكَ ، وَلَوْلاكَ مَا كُنْتُ مُجْرِمَةً وَلا سَاقِطَةً ، فَقَدْ دَافَعْتُكَ جَهْدِيْ حَتَّى عَيِيْتُ بِأَمْرِكَ ، فَسَقَطْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ سُقُوْطَ الطِّفْلِ الصَّغِيْرِ ، بَيْنَ يَدِي الْجَبَّارِ الْكَبِيْرِ .

سَرَقْتَ عِفَّتِيْ ، فَأَصْبَحْتُ ذَلِيْلَةَ النَّفْسِ حَزِيْنَةَ الْقَلْبِ ، أَسْتَثْقِلُ الْحَيَاةَ ، وَأَسْتَبْطِئُ الأَجَلَ . وَأَيُّ لَذَّةٍ فِيْ الْعَيْشِ لامْرَأَةٍ لا تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَكُوْنَ زَوْجَةً لِرَجُلٍ وَلا أُمّاً لِوَلَدٍ ، بَلْ لا تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَعِيْشَ فِيْ مُجْتَمَعٍ مِنْ هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ ، إِلا وَهِيَ خَافِضَةٌ رَأْسَهَا ، مُسْبِلَةٌ جَفْنَهَا ، وَاضِعَةٌ خَدَّهَا عَلَى كَفِّهَا ، تَرْتَعِدُ أَوْصَالُهَا ، وَتَذُوْبُ أَحْشَاؤُهَا ، خَوْفاً مِنْ عَبْثِ الْعَابِثِيْنَ وَتَهَكُّمِ الْمُتَهَكِّمِيْنَ .

سَلَبْتَنِيْ رَاحَتِيْ لأَنِّيْ أَصْبَحْتُ مُضْطَرَّةً بَعْدَ تِلْكَ الْحَادِثَةِ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ ذَلِكَ الْقَصْرِ الَّذِيْ كُنْتُ مُتَمَتِّعَةً فِيْهِ بِعِشْرَةِ أَبِيْ وَأُمِّيْ ، تَارِكَةً وَرَائِيْ تِلْكَ النِّعْمَةَ الْوَاسِعَةَ ، وَذَلِكَ الْعَيْشِ الرَّغَدِ ، إِلَى مَنْزِلٍ حَقِيْرٍ فِيْ حَيٍّ مَهْجُوْرٍ لا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ ، وَلا يُطْرَقُ بَابُهُ ، لأَقْضِيَ فِيْهِ الصَّبَابَةَ الْبَاقِيَةَ لِيْ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِيْ .

قَتَلْتَ أُمِّيْ وَأَبِيْ ، فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُمَا مَاتَا ، وَمَا أَحْسَبُ مَوْتَهُمَا إِلا حُزْناً لِفَقْدِيْ ، وَيَأْساً مِنْ لِقَائِيْ .

قَتَلْتَنِيْ ، لأَنَّ ذَلِكَ الْعَيْشَ الْمُرَّ الَّذِيْ شَرِبْتُهُ مِنْ كَأْسِكَ ، وَالْهَمَّ الطَّوِيْلِ الَّذِيْ عَالَجْتُهُ بِسَبَبِكَ ، قَدْ بَلَغَا مَبْلَغَهُمَا مِنْ جِسْمِيْ وَنَفْسِيْ ، فَأَصْبَحْتُ فِيْ فِرَاشِ الْمَوْتِ كَالذُّبَالَةِ الْمُحْتَرِقَةِ تَتَلاشَى نَفَساً فِيْ نَفَسٍ ، وَأَحْسَبُ أَنَّ اللهَ قَدْ صَنَعَ لِيْ ، وَاسْتَجَابَ دُعَائِيْ ، وَأَرَادَ أَنْ يَنْقُلَنِيْ مِنْ دَارِ الْمَوْتِ

. وَالشَّقَاءِ ، إِلَى دَارِ الْحَيَاةِ وَالْهَنَاءِ

فَأَنْتَ كَاذِبٌ خَادِعٌ ، وَلِصٌّ قَاتِلٌ ، وَلا أَحْسَبُ أَنَّ اللهَ تَارِكُكَ دُوْنَ أَنْ يَأْخُذَ لِيْ بِحَقِّيْ مِنْكَ

مَا كَتَبْتُ إِلَيْكَ هَذَا الْكِتَابِ ، لأُجَدِّدَ بِكَ عَهْداً ، أَوْ أَخْطبَ إِلَيْكَ وُدّاً ، فَأَنْتَ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ . إِنَّنِيْ قَدْ أَصْبَحْتُ عَلَى بَابِ الْقَبْرِ وَفِيْ مَوْقِفِ وَدَاعِ الْحَيَاةِ بِأَجْمَعِهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، سَعَادَتِهَا وَشَقَائِهَا ، فَلا أَمَلَ لِيْ فِيْ وُدٍّ ، وَلا مُتَّسَعَ لِعَهْدٍ ، وَإِنَّمَا كَتَبْتُ إِلَيْكَ لأَنَّ لَكَ عِنْدِيْ وَدِيْعَةٌ وَهِيَ فَتَاتُكَ . فَإِنْ كَانَ الَّذِيْ ذَهَبَ بِالرَّحْمَةِ مِنْ قَلْبِكَ أَبْقَى لَكَ مِنْهَا رَحْمَةَ الأُبُوَّةِ ، فَأَقْبِلْ إِلَيْهَا وَخُذْهَا إِلَيْكَ حَتَّى لا يُدْرِكَهَا مِنَ الشَّقَاءِ مَا أَدْرَكَ " أُمَّهَا مِنْ قَبْلِهَا

فَمَا أَتْمَمْتُ قِرَاءَةَ الْكِتَابِ ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ ، فَرَأَيْتُ مَدَامِعَهُ تَتَحَدَّرُ عَلَى خَدَّيْهِ فَسَأَلْتُهُ : وَمَاذَا تَمَّ بَعْدَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : إِنِّيْ مَا قَرَأْتُ هَذَا الْكِتَابِ ، حَتَّى أَحْسَسْتُ بِرِعْدَةٍ تَتَمَشَّى فِيْ جَمِيْعِ أَعْضَائِيْ ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ صَدْرِيْ يُحَاوِلُ أَنْ يَنْشَقَّ عَنْ قَلْبِيْ حُزْناً وَجَزَعاً ، فَأَسْرَعْتُ إِلَى مَنْزِلِهَا ، وَهُوَ هَذَا الْمَنْزِلُ الَّذِيْ تَرَانِيْ فِيْهِ الآنَ ، فَرَأَيْتُهَا فِيْ هَذِهِ الْغُرْفَةِ عَلَى هَذَا السَّرِيْرِ جُثَّةً هَامِدَةً لا حِرَاكَ بِهَا ، وَرَأَيْتُ فَتَاتَهَا إِلَى جَانِبِهَا تَبْكِيْ بُكَاءً مُرّاً ، فَصُعِقْتُ لِهَوْلِ مَا رَأَيْتُ ، وَتَمَثَّلَتْ لِيْ

جَرَائِمِيْ فِيْ غَشْيَتِيْ كَأَنَّمَا هِيَ وُحُوْشٌ ضَارِيَةٌ ، وَأَسَاوِدُ مُلْتَفَّةٌ ، هَذَا يَنْشبُ أَظَافِرَهُ ، وَذَاكَ يُحَدِّدُ أَنْيَابَهُ . فَمَا أَفَقْتُ حَتَّى عَاهَدْتُ اللهَ أَلا أَبْرَحَ هَذِهِ الْغُرْفَةَ الَّتِيْ سَمَّيْتُهَا "غُرْفَةَ الأَحْزَانِ" ، حَتَّى أَعِيْشَ فِيْهَا عَيْشَهَا ، وَأَمُوْتَ مَوْتَهَا .

وَهَا أَنَذَا أَمُوْتُ الْيَوْمَ رَاضِياً مَسْرُوْراً ، فَقَدْ حَدَّثَنِيْ قَلْبِيْ أَنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لِيْ سَيِّئَاتِيْ بِمَا قَاسَيْتُ مِنَ الْعَنَاءِ ، وَكَابَدْتُ مِنَ الشَّقَاءِ .

وَمَا وَصَلَ مِنْ حَدِيْثِهِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ ، حَتَّى انْعَقَدَ لِسَانُهُ ، وَاكْفَهَرَّ وَجْهُهُ ، وَسَقَطَ عَلَى فِرَاشِهِ فَأَسْلَمَ الرُّوْحَ وَهُوَ يَقُوْلُ : ابْنَتِيْ يَا صَدِيْقِيْ .

فَلَبِثْتُ بِجَانِبِهِ سَاعَةً قَضَيْتُ فِيْهَا مَا يَجِبُ عَلَى الصَّدِيْقِ لِصَدِيْقِهِ ، ثُمَّ كَتَبْتُ إِلَى أَصْدِقَائِهِ وَمَعَارِفِهِ ، فَحَضَرُواْ تَشْيِيْعَ جَنَازَتِهِ ؛ وَمَا رُئِيَ مِثْلُ يَوْمِهِ يَوْمٌ كَانَ أَكْثَرُهُ بَاكِيَةً وَبَاكِياً .

وَلَمَّا حَثَوْنَا التُّرْبَ فَوْقَ ضَرِيْحِهِ *** جَزِعْنَا وَلَكِنْ أَيّ سَاعَةِ مَجْزَعِ

يَعْلَمِ اللهُ أَنِّيْ أَكْتُبُ قِصَّتَهُ ، وَلا أَمْلِكُ نَفْسِيْ مِنَ الْبُكَاءِ وَالنَّشِيْجِ ؛ وَلا أَنْسَى مَا حَيِيْتُ نِدَاءَهُ لِيْ وَهُوَ يُوَدِّعُ نَسَمَاتِ الْحَيَاةِ ، وَقَوْلَهُ : "ابْنَتِيْ يَا صَدِيْقِيْ" .

فَيَا أَقْوِيَاءَ الْقُلُوْبِ مِنَ الرِّجَالِ ، رِفْقاً بِضُعَفَاءِ النُّفُوسِ مِنَ النِّسَاءِ . إِنَّكُمْ

لا تَعْلَمُوْنَ حِيْنَ تَخْدَعُوْنَهُنَّ عَنْ شَرَفِهِنَّ ، وَعِفَّتِهِنَّ ، أَيَّ قَلْبٍ تَفْجَعُوْنَ ، وَأَيَّ دَمٍ تَسْفِكُوْنَ